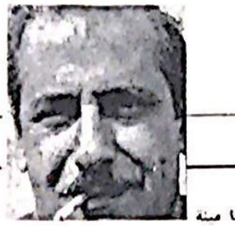
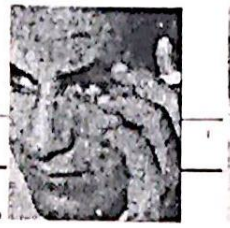

د. يوسف ادريس — حنا مينة

القسم الأخير

ثقافتنا والهزيمة ..

إن صمود الأديب أمام كل الاغراءات السطحية ورفضه تزييف ضميره وتقديم جهده الإبداعي هو ساحته الحقيقية

اننا يجب ان نشير الى ان الاديب يتحدث كانسان ذي هموم ، يطمح الى ان يكون حاضرا في هذا العالم ، ولا يتحدث باعتباره روحا شاملا او وعيا عاما . وهذا واضح من قول لطفي الخولي : « ان الفنان بقدر ذاتيته خاصة يتفاعل مع موضوعه لا يمكن ان يعطي ادبا وفنا حقيقيا .. » ومن هنا يصبح الاتجاه الشخصي في التفكر لعامل الفعال في اعطاء صفة التفرد للنتاج الادبي . فملكة الوعي هي اساسا شخصيه ، ولا يمكن ان يسود الوعي النمطي الا في المراحل المظلمه من تاريخ البشرية ، وفي عصر مثل عصرنا العربي تبدو صفة اللاهامية واللا تكون واضحة وضوحا بارزا في مجمل جوانب حياتنا . ان لدينا مناخا مهيئا للاجيال تتولد في اجوائه ولتمارس حياتها النمطيه كما اعتادت الاجيال الماضية ، فهناك حل لكل شيء — بغض النظر عن قيمته وهناك جواب على كل سؤال . وحالة التنمط هذه حالة موضوعية يقابلها الفرد منذ ولادته . واذا اردنا استعارة التعبير نفسه لقلنا ان الذات يبدأ احتلالها من قبل الموضوع ، حتى تمتلىء به تماما ، وبذا تقتل اي حيوية محتمله في هذا الكائن النمطي .

وفي اعتقادنا ان الحيوية والتفاعل الحقيقي مع البيئة هو مبدأ الصراع الذي يخوضه الفنان في سبيل تحقيق ولادته . فما يدعى بالموضوع في وضعنا الراهن ليس الا مناخ الاهتراء والتفسخ الخلقي والمادي ، وتشكل هذه الاشكال اللاشخصيه — النمطية — موانع امام ولادة الرؤيا الجديدة لواقع الحياة .

ان تعلق هذه الولادة بالنزول «عن الرصيف والمشاركة» لا معنى لها هنا ، اذ ان الفنان يشارك فعلا بوعيه في صياغة الحياة . وقناعاته الشخصية هي التي تحدد سلوكه العملي ومهنته في هذه الحياة .

ان ما اخشاه من هذه النظرة التي تعاق الابداع الادبي بسلوك معين ، هو انها قد تتحول في يوم من الايام لتطالب الاديب بدعوى حل ازمته باجادة السباحة مثلما تطالبه الان باجادة اطلاق النار !..

وفي كلا الحالين لا يبدو لنا ان اللهجة الاولى واللهجة الثانية تستطيعان الحديث عن الادب .

فهل هناك لهجة اخرى ؟

اننا نجد انفسنا متفقين مع د . يوسف ادريس في قوله « المهم هو الصدق .. فاذا شعر الكاتب ان عليه ان يحمل بنادقه ويحملها . هنا تلاحم الذات الداخلية للفنان والقضية العامة . فمشكلة الحرية او قضية الديمقراطية ليست فقط مشكلة عامة ، انما مشكلة شخصية بالنسبة الكاتب .. »

ودوافع الالتزام هذه — اي الاخلاق الشخصية — هي في الحقيقة من اعمق الدوافع ، ولا يمكن البحث عنها الا في ذاتنا الشخصية .

يبقى بعد ذلك بعض الاراء التي طرحها « حنا مينة » حول وضعية الاديب .

والخلاصات التي توصل اليها المنتدون ، وهي تحتاج الى تعليق .

يقول حنا مينه : « ان ادباءنا لم يفطنوا الى العمق وهذا صحيح ، بمعنى اخر اننا لم نكتب شيئا في حجم الدون الهادىء او سقوط باريس ، ذلك لاننا لم نكتب فعلا عن الهزيمة كان « المطلوب » ولا زال « المطلوب » من الاديب العربي ان يكتب عن الانتصارات والانجازات والايجابيات . واذا تجرأ وكتب فانه لن يجد الوسيلة التي يصل بها الى الجماهير . انني احيانا اكتب رواية اعرف مقدما ان درج مكتبي هو ملاذها الوحيد .. »

وامام هذه « المشكلة » ! يقف « حنا مينه » ليطرح بحل « مشكلتنا هي ايجاد مناخ الديمقراطية الذي يتيح للقوى الوطنيه والاجتماعية ان تتحرك في اتجاه الوطن وتقدم المجتمع ويتيح للاديب ان يعبر عن هذا التحرك ، ان يرفضه وان يتقبله كما يهوى .. »

وهذا الفهم مع الاسف الشديد لطبيعة العمل الفني خاطىء من اساسه ، فهو يعلل عدم كتابة اثار مثل « الدون الهادىء » و « سقوط باريس » في اللغة العربية بعدم الكتابة عن الهزيمة . لماذا ؟ لان المطلوب كان كذا .. وكذا ..

ولا ندري من هذا الذي كان يقف ليطلب من الاديب كذا وكذا .. اللهم الا اذا كان « حنا مينه » يقصد بالاديب تلك الابواق التي ملأت الدنيا بضجيجها ولم تقدم نتاجا ادبيا ذا قيمه ، فاذا كان يقصد ادانة هذه الابواق فهي مدانة اساسا ليس لانها لم تكتب عن الهزيمة او لانها كتبت عن الانتصارات بل لانها كتبت هراء . هذا كل ما في الامر.

ان الادب العربي الذي يستحق هذه التسمية لا يحتاج اساسا لاذن الكتابة ، ولا ينتظر امرا من احد ليحدد له نوع ما يكتبه الا ان يكون بوقا كما قلت . والاديب الحقيقي يرفض اساسا المساومه على ابداعه ، ولا يمكن ان تدفعه غايه وصوله الى الجماهير الى ترويج الاكاذيب . انها فكاهة غير مستحبة هذه التي يطرحها « حنا مينه » . ولا نعتقد ان بقاء نتاج جيد دون نشر يمكن ان يدفعنا الى الكتابة الاكثر الاثار رداءة فهي سحنه غريبه . والاغرب منها ان يطالب « حنا مينه » بايجاد مناخ الديمقراطيه الذي يتيح له ان يكتب ..! وهذا اغرب طلب يمكن ان يقدمه اديب . ان من شأن القوى الوطنيه والاجتماعية ان تطالب بالديمقراطيه والحريه ، وان تناضل من اجلها ولكن ان نطالب بها لاديب من اجل ان يكتب والا فلن يكتب بدونها الا كل ما هو زائف وتافه .. فهذه ايضا فكاهة لا يمكن وصفها الا بالخشونه .

ويخيل لي ان المفهوم الكامن وراء امثال هذه الاراء حول الادب والكتابة الادبيه هو المسؤول عن هذا . اذ يقول حنا مينة في معرض حديثه عن معارك الادباء : « لقد ساهم ادباؤنا في كل المعارك . ولكنهم الان في حالة انتفاء عن المساهمه في المعركه . والسؤال الجوهري : لماذا ؟

لان الحركة هي التي تحمل الاديب والفنان في تيارها ، انه يواكبها من داخلها ، من القلب ، واحيانا يتقدم عليها ويسبقها . هذه الحركه الان في شبه انتفاء . حين لم يكن لدينا مقاومه لم يكن عندنا ادب مقاومة ، والعكس ايضا صحيح . وحين تعرضت المقاومة لنكسة تعرض الادب الذي يكتب عن المقاومه لنكسة ، والى نوع من الجمود ونوع من التراجع .. »

ويبدو من هذا الكلام ان صورة « المعركه » التي يتحدث عنها « حنا مينة » هي نفس الصورة التي يتحدث عنها لطفي الخولي . انها « المعركه » بالمفهوم الاذاعي والصحفي. كان تكون معركة تخوضها جماعة سياسية .

وبالتاكيد نحن لا نختلف على ان للاديب الحرية الكافية في التصرف وفق قناعاته الشخصية ، ولكن تحديد نوع التزامه وتحديد نوع تصوره للمعركة ومعناها هو ايضا من صميم حريته هذه نقطة .

النقطة الاخرى هي ان هذا الربط المجاني بين وجود « المقاومة » ووجود الادب وازدهاره هو ربط غير مستساغ ليس لان تاريخ الادب لا يتضمن هذا النسق من التلازم فقط ، بل لان الادب « مقاومته » التي تلتقي في الاعماق مع كل اشكال المقاومة . فعلى مستوى الاهداف يتوجه الادب الى بناء النفس البشرية ، ويلتقي بذلك مع الحركات الاجتماعية على مستوى اهدافها .

ولم يحدث ابدا ان انتظر اديب من الادباء الكبار « الحركة » و « المقاومة » ليبدأ مقاومته ، او « انتكس » ادبه في حالة انتكاس « الحركة » و « المقاومة » . ان للادب دوره القائد . هذا اذا كنا نتحدث عن الادب وليس عن ضروب التسلية والتهريج المتسترة بالادب .

ان الكثير من النتاجات التي دخلت عالم الادب نتيجة لتسلق اصحابها على التيارات السياسية ومن ضمنها المقاومة الفلسطينية ، تفتقر الى مقومات البقاء .

فاستخدام الادب والفن كادوات للحصول على مراكز اجتماعية ، ولاشباع عقد النقص لدى البعض ، او للحصول على الثروة ، كل هذه الاستخدامات هي خيانة للوظيفة الاصيلة للادب ، وهي وظيفة ابدية لا يمكن ادراكها الا من خلال الحس التاريخي بالوجود البشري . فاذا كان من المحظور على الاديب ان يساوم على ابداعه مقابل شهرة زائفة توفرها له الابواق الصحفية والاذاعية ، فان من المحظور على النقاد ان يقوموا بوضع نتاجاته على اسرتهم الحديدية .

انني ارى في هذه الايام موجة من الزيف العارم ، وهي طبيعية جدا في الاوضاع الانحطاطية التي نعيشها ، فالزيف ليس ادبيا فقط ، بل هو تعبير عن زيف شامل ، وهذا الزيف يشكل بالضبط ازمة اجتماعية . وعلى هذا المستوى الاجتماعي من الممكن الحديث عن الازمة الحقيقية.

فالى جانب العاب السيرك التي يقدمها الحواة من الشعراء والكتاب تارة باسم الثورة والجماهير ، وتارة باسم المرأة وتحررها الجنسي ، تقف في الظلال ابداعات عربية في الشعر والرواية والفنون المختلفة. فلماذا لا يكلف النقاد انفسهم التعريف بها ، وانقاذها من العتمة ؟

اذكر ان احدهم طالبني بالبديل حينما بينت له زيف بعض الروايات السطحيه .. وكان جوابي : البديل موجود .. النتاج الجيد هو البديل .. ان ابداعات نجيب محفوظ والطيب صالح ومحمد ديب وغائب طعمة فرمان هي البديل .. فلماذا لا تساهم هذه النتاجات في تشكيل ثقافة الاجيال العربية ؟

ان رواية تافهة مثل رواية « زينب » لا تزال حتى اليوم تدرس في الجامعات المصرية .. بينما تبقى الروايات الحقيقية بعيدة في الظلال .. فهل هي ازمة ادباء ؟

وهل هي ازمة معركة ولا معركة ؟ ان صمود الاديب امام كل الاغراءات السطحية ، ورفضه تزييف ضميره ، وتقديم جهده الابداعي هو ساحته الحقيقية .

وهذه المسؤولية شخصية باعمق معاني المسؤولية ، ولا يمكن ان تحل محلها المطالبة بالعلاقة الصحية بين الانظمة والكتاب ، وهي ما انتهى اليه د . يوسف ادريس . فان تطالب باقامة علاقة صحية مع الانظمة معنى هذا انك تجهل جهلا مطبقا طبيعة الازمة .

ولكن — وكما قلنا في البداية — تبدو هذه المطالبة منسجمة تماما مع التصور الذي يراه اصحاب الندوة لطبيعة مشكلاتنا . فهم حين نقلوها من الاطار الحضاري الشامل الى الاطار الضيق ، وهم حين استبدلوا ازمة المجتمع بازمة الاديب ، كان من الطبيعي ان يقيموا اية علاقة ، وان يصلوا الى هذه النتائج الغريبة عن منطق الانسان الفنان ووظيفته الطليعية .

وفي مناقشتنا لوضعية الاديب لاحظنا ان المتندين يتحدثون حتى ضمن مشكلة الاديب — عن الادب بلهجة مد الجسور وشق الطرقات ، ولا ادري هل اذا كانت هناك ازمة ابداع — كما يبدو من حديثهم — يمكن ان تحل بقيام جبهة وطنية تقدمية ديمقراطية بين ادباء وفناني الوطن العربي ؟ يخيل لي انهم يتحدثون عن شيء اخر غير ازمة الادب .

فاذا كان من الطبيعي ان يتجمع الادباء والفنانون في جبهة ، فيجب وضع الهدف ضمن المعقول والمنطقي، فهم ليسوا اصحاب رؤوس اموال يخططون لاستثمارها ، وهم ليسوا جنرالات يجتمعون لتنفيذ خطة عسكرية . انهم خالقون لنتاجات فنية هي مبرر وجودهم كفنانين ..

وتجمعهم يستهدف هدفا متواضعا هو اقامة الصلات بين مواهبهم ، وبحث الوسائل الفعالة التي تمكنهم من المساهمة في تشكيل ثقافة الجماهير . وكل هذا يفترض بداهة ان يكونوا على مستوى مسؤولية الفن والادب .

محمد الأسعد

ملاحظات حول أصالة الشعر الشعبي الثوري

بقلم
داود سلمان ـ العراق

قبل ان ابدا الحديث عن الشاعر احمد فؤاد نجم وقصائده الشعبية .. اود ان انير مسلكي للدخول في مجموعته الشعرية ببعض من السطور التي ستتيح لي ، وللقارىء الولوج فيها بسهولة ...

يقول الناقد غالي شكري « ... ولكن لا ريب فيه ان شعر المقاومة الحقيقي ، ومن زاوية رئيسية ، كان الشعر الشعبي، شعر العامية » « ! » .

ويقول الشاعر الفلسطيني توفيق زياد « ... فالادب الشعبي هنا يتخذ صفة السلاح ... وفي مسيرتنا نحو الحرية السياسية والاجتماعية ، نحن بامس الحاجة ان نشحذ ذلك السلاح الاصيل » ... « ٢ » .

انه ، ومن خلال هذين الرايين يتضح لنا وبجلاء تام : ان الشعر الشعبي هو الشعر القادر على استيعاب جميع جوانب المعركة الحامية للدفاع عن الوطن او عن الحرية — بمعناها الصحيح — .. الخ ... ولكن السؤال الذي يثار هنا هو لماذا الشعر الشعبي يتخذ صفة بالمقدرة على هذا العمل والقيام به ؟ .

يجيبنا الاستاذ غالي شكري قائلا « ان العامية التصقت اكثر فاكثر بمشكلات هذا الشعب وتناضلت معه في كافة معاركه الوطنية والاجتماعية » ... « ٣ »

ويقول ايضا معطيا سبب كون اللهجة العامية اقدر القوالب في التعبير اللغوي على التقاط الظاهرة المضطرمة فيقول : « لا لانها لغة التخاطب بين اوسع الجماهير ، بل لان تراثها الفني اعمق نفوذا لدى الوجدان الشعبي من التراث العربي الفصيح » ... « ٤ » .

ويقول الشاعر توفيق زياد مجيبا على السؤال نفسه حين يقول : « فان سحر العامية وتاثيرها ، وفعلها الثوري ايضا ، يبقى ما دامت هذه الكلمة نفسها تنبض بحرارة الحياة على شفاه الناس وفي ارواحهم » « ٥ »

وهكذا كانت قصائد الشاعر الشعبي العراقي الملا عبود الكرخي نابضة بالكلمة الثورية العارضة الساخرة .. وتشهد كتابات شعرائنا وقصائدهم الشعبية في ثورة العشرين بدورهم الكبير في تاجج حمية وقلوب الروح الثورية .. ولا تزال هوسايهم التي عبرت — ولا تزال — بنفس الروح الثورية والمعارضة ضد قوى الطغاة والمستعمرين .. ولا تزال قصائد الشاعر المصري صلاح جاهين ذات الاسلوب الساخر المحرض الرافض تنبض في دم ابناء مصر كجريان دماء الفدائيين العرب مع صوت شاعرهم الشعبي .. وعاشت وتبقى، تلك القصائد كملاحم تصور لنا المد الثوري كما عاشت قصائد الشعراء العالميين الثوريين مثل الشاعر التركي ناظم حكمت والتي الهمت الوجدان الوطني في تركيا .. وقصائد الشاعر بابلو نيرودو والشاعر لوركا .. وتظل تنير الدرب للذين يخطون بدمائهم روح الثورة والمقاومة كما خطوها الشعراء الفيتناميين حتى كان النصر لهم .

ان الشعر الشعبي ، وبدوره الفعال في المعركة قد حقق نجاحات باهرة في هذا الميدان .. ولا تزال القصائد تعيش بيننا وليست العراقية فقط بل العربية باجمع .

وها هو الشاعر العراقي الملا عبود الكرخي يقول : —

« ما اسكت اذا بالضرب جلبوني
الى راس الجسر وبحبل شنقوني
ام في قعر بير اسود يحبسوني —
ويكلي الحاكم انت تتأبد »

او كما يقول احد الشعراء

العراقيين مخاطبا حكام ال عثمان بهوسته الثورية قائلا :

« آنه وي النفك ولدان ولمات
اولا نركن لحكم الجور والمات
عدنه يحتيى المضيوم والمات
يتشرب من حد ما ضينه »

ويقول الشاعر الشعبي المصري فؤاد حداد :

« بعد الرصاص ما سكت كان الرصاص بيفوح
الجو حابس الامه والحجر مجروح
الاوله آه على عيل يتيم بينوح
والثانية آه فين ابوه وامه وفين حيروح
والثالثة آه كان لنا في الشمس بيت وسطوح
يا قلبي دقت ايد مين على بابك المفتوح
عيل يتيم على تل من الحجر بينوح
ويبصلك بعيون اوسع من الاجفان»

اذا كان الشاعر حداد يرسم لنا صورة لطفل ايام حرب ١٩٥٦ فها هو الشاعر الفلسطيني الشعبي « صخر » ينشد على صوت الرصاص ..

« يا للي انسيت الشعب ودوره
في حرب الشعب
عرموش فلك نرجف ليه للحل
السلمي
ولسانك يهتف للحرب
دم الشهدا دفنته اف جيك
اخضر ناشف
نخبط ..
نشفط
حاسب .. مهلك .. لازم نربط
وحنحاسب .
حتما .. حتما لازم نربط » ..

اما الشاعر الشعبي المصرى بيرم التونسي فيقول راسما صورة شعب المصري وقت الاستعمار ..

« عم ابراهيم راجع حزين من
شغله .
ماشي على العكاز ورابط رجله
وعيشه شايله تحت باطه وفجله
يا رب تلطف بالغلابه وبيه »

والان . نجد الشاعر احمد فؤاد نجم يقول : —

« يا طبيب دنا جرحي فلو عني
وسافيني الحنضل من كاسي
والنار ف ضلوعي بتلسعني
وانا لسه صغار
والعيا قاسي
ولا عمر الليل مره سمعني
عليت الاه على انفاسي
ابدا يا طبيب »

انه بيرم التونسي .. وهذا فؤاد نجم .. وبين بيرم ونجم تقف هذه القصيدة التي خطها الشاعر نجم هدية الى شاعره التونسي ..

« يا عيون الشعر يا تونسي
يا بحور هايجين مايجين
ماشيين ف طريقك دايما
وحنفضل كده ماشيين
ع الدرب اللي انت رسمته
بالليل والناس نايمين » .

وتبقى كلمات نجم كشعلة تنير الدرب للمناضلين حيث تصلهم عبر صوت فنانهم الذي كان ولا يزال وصاحبه الشاعر : « يتمحور بصورة مباشرة حول المسالة الوطنية التي كانت ايضا محور الحركة الشعبية »

وتبقى القصيدة بينهم كخيط رفيع محاذرين انقطاعه وتبقى كلمات الشاعر تهدي المغني « البصير » الى دربه ..

« دور يا كلام على كيفك دور
خلي بلدنا تعوم ف النور
ارمي الكلمة في بطن الضلمة
تحبل سلمى وتولد نور
يكشف عينا
ويلهبنا
لسعه ف لسعه
نهب نثور
دور يا كلام على كيفك دور »

من انتاج الرفاق

الليل والبنادق

يقف الليل ساكنا .
يقف الليل في النهر . وفي النوافذ ،
وعلى البنادق الساهرة .
تمر الريح بي .
تمر .. تحمل اسمك يا وطني . تحمل
العنف والجراة .
انت كل « القوة » التي تنطوي عليها
الريح ، وكل ما عداك فيها ساكن .
يقف الليل ازائي . تقف وجوه غسان
وشاديه ابو غزاله وجيفارا .
يقف الليل في الساعة .
الساعة تصدر اصواتا رتيبة . صوت
خطى العائدين اليك ، اشم فيها رائحة
الليمون ، انه الحلم الذي اسمعه كل
ليلة .

يقف الليل رهيبا . اتلوى في دهاليزه.
تتلوى دهاليزه حول « غربتي »
اريد الان وجه القدس العائد من رحلة
النهار الرتيبة . وجهها الذي تتلقاه
الان عيون غريبة بوريقات خريف اصفر
عندما يرجع وجهها من رحلة النهار
أشم فيه رائحة « الانتصار » ، رغم
كل ما قالوه عن ابتعادها اشمها انا
قريبة ، ترسم التفاؤل فوق كل
ما بنينا .
كنت يا قدس ربيعا ضللت سماؤه
سحابة ملعونة وامطرت فوق ارضه
مرايا عليها رسوم جدب وشحوب .
اذكر ذلك مثلما اذكر طفلة رايتها مرة
تحترق بالنابالم .

يقف الليل . واسمع حفيف اجنحة
القمر المسافر الى الفضاءات الاخرى .
يقف الليل ويمتلىء راسي بلون ضوء
النار ..
بعد حين سيكون ثمة متسع لجمع
قطع الثلج الصغيرة التي يرشها المطر
في بعض ايام الشتاء .
احبك .. والليل واقف
احبك .. قريبا او بعيد
احبك واعلم اني لا المسك. لكني احبك
وافرح لاجل لحظات يقطعها اطفالنا
الاتون في جمع قطع الثلج الصغيرة
المتساقطة فوق روابيك من بعض ايام
الشتاء .

شفيقة الداغستاني